ولم يجد المصطفى صلى الله عليه وسلم عبر رحلته الشاقة الطويلة خارج مكة إلا قلوبا غلفا، وآذانا صما، وأعينا عميا، فما لانت له قناه وما أستيأس إذا كذب ، بل رجع إلى نفسه ، ورجا ربه ألا تكون هى سببا فى هذا الذى يكابده ، ولنأخذ مثالا واحدا من هذا ..

يقول الشيخ صفى الرحمن المباركفورى فى الرحيق المختوم ص ١٤٨.

فى شوال سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩م) خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلي الطائف، وهي تبعد عن مكة ستين ميلا ، سار ماشيا على قدميه جيئة وذهابا، ومعه مولاه زيد بن حارثة وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاث أخوة من رؤسائها وهم عبد ياليل، ومسعود، وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام ..

فقال أحدهم :

هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر :

أما وجدالله أحدا غيرك ؟

وقال الثالث:

والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى أن أكلمك فقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم : إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى - وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام لايدع

أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : أخرج من بلادنا، واغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم ، يسبونه ، ويصيحون به ، حتى أجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين (أى صفين)، وجعلوا يرجمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه ، ورجموا عرقيبه ، حتى أختضب نعلاه بالدماء ، وكان زيد بن حارثة، يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج فى رأسه ولم يزل به السفهاء كذلك، حتى ألجئوه إلى حائط لعتبة وسيبة ، ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه . وهذا النموذج الحى يجسد لنا مدى بذل الرسول صلي الله عليه وسلم فى سبيل الدعوة إلى الله، ومدى المشاق والمصاعب والسفاهات التى لاقاها من الطغاة، لكن لم ييأس، بل توجه إلى الله يستمد منه العون ، وأن يعينه بمدد من عنده حتى يستطيع تبليغ رسالة الله كما أمر ..

والأنبياء – وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – هم أئمة الدعاة وقادتهم ، ونبراس طريقهم فى الدعوة إلى الله، فينبغى علينا أن نحذوا حذوهم ونقتفى أثرهم فلا نؤدى خطبة الجمعة وننام إلى مثلها من الأسبوع المقبل بل لابد وأن نبلغ بألسنتنا حتى تعيى عن الحديث، ونتحرك بين الناس بأخلاقنا حتى تغمرهم سنا أخلاقنا، وإذا كان الله تعالى قد خاطب عموم الأمة الإسلامية بأن يتقوه حق التقوى فإن أولى الناس بهذا الأمر هم قادة الأمة ... أن يتقوا الله كما يحق له أن يتقى – وهى هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدا فى بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها، وكلما أوغل القلب فى هذا الطريق، تكشفت له آفاق، وجدت له أشواق، وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى مقام الذى يستيقظ فيه قلبه فلا ينام. (٤٤٢/١ ظلال).

إن الزاد الذى يحرك الداعية إنما هو التقوى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وعلى قدر تقوى الداعية لله ،على قدر تنفق أكمام الطاقات لديه ولهذا ندرك الفرق بين داعية أثره فى الناس محدود وآخر قد أختاره الله ليجدد للناس دينهم ومن هنا جاء النص القرآنى معبرا عن عطاء الدعاة وتباينهم فيما بينهم ، فى قوله تعالى : ﴿لايكلف الله نفسا إلا وسعها﴾.

فيختلف الوسع من داعية لآخر على قدر فهمه لدعوته ،وعلى قدر إيمانه بها.. فترى داعيةمبلغ همه أن يقول كلاما منمقا من خلال الوسائل التقليدية كالجمعة والدرس مثلا، وآخر لايتوقف عند هذا ، بل يفكر دائما فى ابتكار وسائل أخرى للدعوة، فتراه يغشى مجالس العصاة معه خطته هادفا من وراء ذلك إلى توبتهم ، وتراه يغشى مجالس أصحاب البدعة ، هادفا من وراء ذلك أن ينقلهم من محيط البدعة إلى محيط السنة، وهذا النوع من الدعاة هو الذى اعذر إلى الله وبذل ما فى وسعه ، وإن كان نادرا بين الدعاة ...

ولقد ضرب لنا صحابة النبى صلي الله عليه وسلم أروع الأمثلة فى بذل الوسع من ذلك ...

[١] (دخل رسول الله صلي الله عليه وسلم على ابنة ملحان فاتكأ عندها ، ثم ضحك فقالت لم تضحك يارسول الله ؟؟

فقال : ناس من أمتى يركبون البحر الأخضر [١] فى سبيل الله، مثلهم مثل الملوك على الأسرة .

---

(١) البحر الأخضر الأخضر صفة لازمة للبحر لامخصصة ، ويحتمل أن تكون مخصصة لأن البحر يطلق على الملح والعذب، فجاء لفظ الأخضر لتخصيص الملح بالمراد، قال الكرمانى : والماء فى الأصل لا لون له ، وإنما تنعكس الخضرة من إنعكاس الهواء وأثر مقابلاته إليه / الفتح ٧٦/١١

فقالت يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم ، فقال اللهم أجعلها منهم .

ثم عاد فضحك ، فقالت له مثل ذلك ، فقال مثل ذلك – فقالت أدع الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت من الأولين ولست من الآخرين .

قال أنس :

فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة [1] فلما قفلت ركبت دابتها ، فوقصت بها ، فسقطت عنها فماتت)[2].

وفى لفظ آخر

عن أنس بن مالك عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت نام النبى صلى الله عليه وسلم يوما قريبا منى، ثم استيقظ يبتسم فقالت ماأضحكك؟

قال : أناس من أمتى عرضوا على يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة – قالت أدع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها .. ثم نام الثانية ففعل مثلها ، فقالت مثل قولها ، فأجابها مثلها ، فقالت – أدع الله أن يجعلنى منهم .. فقال : أنت مع الأولين ، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية ، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين فنزلوا الشام، فقربت إليهم دابة لتركبها فصرعتها فماتت[3].

ولقد تعددت روايات ذلك الحديث فى البخارى فى مواضع عدة .

وكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى بيت أصحابه – إنما كان يفعل ذلك تأليفا للقلوب وزيادة فى الإمتزاج والترابط، فالداعية هو الذى

---

(١) بنت قرظة : هى زوج معاوية بن ابى سفيان ، وأسمها ..... وقيل كتوم.

(٢) فتح البارى : كتاب الجهاد والسير/ باب غزو المرأة في البحر / ٦/ ٩٠/ عن أنس

(٣) المرجع السابق ٦/ ٢٢.

يخالط الناس ويعاشرهم ويعايش أحوالهم ، ويكون على مقربة منهم ..

وليس اداعية هو الذى لايراه الناس إلا لماما من خلال خطبة أسبوعية وفقط وإذا كان رسول لله صلى الله عليه وسلم قد نام فى بيت عبادة فى حضرة روجته ، فقد ذكرت بعض الكتب [1] أن زوج عبادة هذه كانت محرما للرسول فلا حرج عليه أن ينام ، ويأخذ حظه من الراحة والقيلولة فى هذا البيت .

ولقد صدقت تلك النبوءة المباركة إذ خرج الصحابة سنة ٢٨ هجرية فى زمن معاوية فى غزو (قبرص) ولما قربت لها دابة لتركبها سقطت من فوقها فماتت ، فأدركت الأولين وجاهدت معهم، ولم تنل شرف الخروج مع الآخرين[2] لا نقضاء أجلها لكن حسبها همتها العالية وحبها للجهاد والدعوة إلى هذا الدين فى أرض الله الواسعة .

ماتت رضى الله عنها- ودفنت بجزيرة (قبرص) وقبرها يضء ماحوله فى تلك الجزيرة، والذى يلفت الأنظار أن تجاورها فى الخروج للجهاد زوج أمير المؤمنين معاوية – رضى اله عنهم .

وهذا كان سر النصر فى تاريخ أمتنا المجيد ..

إن الإمام يكون فى مقدمة الصفوف هو وزوجه، وفى هذا من كمال تحقيق القدوة .. فهل ترى بعد ذلك مؤمنا أو مؤمنة يتقاعس عن أداء دوره فى الجهاد فى سبيل الله؟ كل فى ميدانه – ومن هنا كانت الأمة مجاهدة استحقت تأييد الله ومدده وعونه.

---

(١) قال بن عبد البر : أظن أن أم حرام أرضعت رسول الله أو أختها أم سليم، فصارت كل منهما أمة أو اله من الرضاعة فلذلك كان ينام عندها ، وتنال منه مايجوز للمرء زن يناله من محاورمه ، ثم ساق بسنده إلى يحى بن إبراهيم بن مزين : إنما استجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تفلى أم حرام رأسه لأنها كانت منه ذات محرم من جهة خالاته أنظر بالتفصيل فتح البارى /١١/ ٨٠-٨١.

(٢) فتح القسطنطينية.

والشاهد فى الحديث :

أن السيدة أم حرام بنت ملحان- رضى الله عنها - تاقت نفسها مع ركوب البحر- مع مافيه من مخاطر - لتجاهد فى سبيل ربها، بل وطلبت من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها- وهو صاحب الدعاء المستجاب- وهذا دليل على صدق أمنيتها وعزمها .. بل ونراها تتمنى أن تحظى بكل ميدان من ميادين الجهاد فى سبيل الله عز وجل إنها بذلك تقدم لنا أروع الأمثلة فى بذل الطاقة ، واستنفاذ الجهد فى سبيل إعلاء كلمة الدين ..

وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر من طبيعة النساء فى قوله تعالى :-

﴿أو من ينشؤ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين﴾[1]

أو ينشؤ فى الحلية فى الزينة والمتعة وهو فى الجدال والمخاصمة لايظهر ولا يشارك فما بالك بالحروب المستعرة أوارها..

إن الهمة العالية لدى تلك الصحابية وغيرها جعلتها تستشعر أن تخضيبها ليدها بالدم من قتال الكافرين أحب إليها من تخضيبها بالحناء كما هو شأن النساء وأن ريح الغبار فى سبيل الله أحب إليها من ريح العبير تضعه فى بيتها .

قد ماتت ودفنت بغير بلدها من أجل نشر الدعوة إلى الله عز وجل ولقد مات كثير من الصحابة خارج بلادهم ، فهذا أبو أيوب الأنصارى الذى يخرج للجهاد وهو شيخ كبير في فتح القسطنطينية فيموت هنالك ويدفن تحت أسوارها لقد استحق الصحابة من ربهم الثناء الجميل فى قوله تعالى:-

---

١) الزخرف ١٨.

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ (١)

من بعد ماأصابهم القرح من بعد ماأثخنتهم الجروح، لقد وضعت غزوة أحد أوزارها وصحابة النبى تسيل دماؤهم، وتتسع جراحاتهم، فهم فى مسيس الحاجة لتضميدها ومعالجتها حتى تندمل، وبينما هم يجنحون لذلك، يبحثون عما يسكن آلامهم إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم لمزيد من الجراحات وإنفاق كثرة من الدماء، يدعوهم لشن هجوم مضاد على الكفار لإلقاء الرعب فى قلوبهم حتى لايأنسوا من السلمين ضعفا، وتتقطع أطماعهم فى المدينة ..

ولقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن يستنفذوا كل ماعندهم من طاقة وجهد فدعاهم وهو أعلم بهم - وذلك ليحقق لنا القدوة- معشر الدعاة - أن ننفر بدعوتنا نبلغها للعالمين فى المنشط والمكره خفافا وثقالا - فذلك هوالمطلوب منا - وإلا حاسبنا الله على التفريط والتقصير.

متى يكون الداعية قد أستنفذ المجهود وأدى الذى عليه يكون ذلك فى أمرين :-

الأول : ألا يألو جهدا فى سبيل تبليغ دعوة الله إلى الناس كل على قدر مستواه وألا يترك فرصة إلا ويستغلها فى تذكير الناس بالله وتعريفهم بمبادئ الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم « بلغوا عنى ولو آية».

---

(١) آل عمران ١٧٢ . (وقد ذكر بنكثير فى هذه الآية أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ من بنى عبد الأشهل كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخى فرجعنا جريحين . فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى أو قال لى: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرح منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة ، حتى انتهينا إلى مانتهى إليه السلمون) وهذا نموذج من نماذج عديدة فى هذا الشأن.

فإذا كان المقام يحتاج إلى كلمة واحدة فلا يضن بها الداعية ولايتثاقل عنها استصغار لشأنها قائلا : ماذا تفعل تلك الكلمة؟

لكن مايدريك ..

رب كلمة حركت أمة !!

ومن هنا فإن للدعوة أصولها ومقاماتها ، والداعية مؤتمن على تلك المواقف، يسد ثغرها، ويجاهد حتى لا يثلم دين الناس، فهو يقظ حريص شعاره:

أينقص الإسلام وأنا حي ؟!!

ومن قبيل بذل الجهد : ألا يأخذ لنفسه " أجازة " من الدعوة بحجة أنه مشغول ، أو أنه مريض، أو أن صحته صارت لا تتحمل ..

فهذا خطأ جسيم دال على ضيق فهم صاحبه ، فإن الله تعالى قد استنفر الجميع، فقال تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

انفروا شبابا وشيوخاً..

مهازيل وسمانا ..

صحاحا ومرضى ..

ركبانا ومشاة ..

خفافاً من السلاح وثقالا منه ..

خفافاً من قلة تبعات الأسرة وثقالا لكثرة أعبائها ..

خفافا لقرب المكان وخفة العمل، وثقالا في حالة بعد المكان وبعد المشقة (قرأ أبو طلحه الأنصاري سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾).

فقال : أى بنى جهزونى جهزونى ، فقال بنوه : يرحمك الله !

لقد غزوت مع النبى ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك.

قال : لا، جهزونى . ففزوا فى البحر فمات فى البحر فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير رضى الله عنه[1] إن هؤلاء يدركون أن الحياة بغير جهاد تعتبر مواتا، وأن موت المجاهدين فى سبيل الله شرف عظيم، ولقد كان هذا حال السلف الصالح، فهذا عبد الله بن أم مكتوم – رضى الله عنه – يقول يوم أحد أنا رجل أعمى، فسلموا لى اللواء، فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح [2] لقد اتخذ من عامل ضعفه عامل قوه وثبات !! وروى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشام رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له : يا عم ،

إن الله قد عذرك ..

فقال يابن أخى : قد أمرنا بالنفر خفافا وثقالا !! [3]

ولقد كان الصحابى الجليل عمرو بن الجموح بين العرج ، فأراد أن يجعل من عامل عجزه عامل انطلاق الى جنة عرضها السماوات والأرض، حينما تجهز للغزو فمنعه أولاده لأنه أعرج.

---

(١) انظر تفسير القرطبى م ٤ / ج ٨ / ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق .. نفس الجزء والصفحة.

(٣) المصدر السابق .. نفس الجزء والصفحة .

والله تعالى يقول :

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ (١)

فقال لهم قولته المشهورة (أريد أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة) !! إن هؤلاء أصحاب الأعذار - قد رفع الله عنهم الحرج بعجزهم وضعفهم.

فقال تعالى :

﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ (٢)

وهم مع ذلك لا يرضون لأنفسهم أن تكون فى عداد القاعدين بل فى عداد المجاهدين لعلمهم أن الجنة لا تنال إلا ببذل الجهد واستسهال الصعب واستعذاب العذاب فى سبيل طاعة الله ومرضاته ورفع راية الدعوة الى الله رب العالمين.

وهؤلاء العظماء قدوة لنا - معشر الدعاة - فى البذل والعطاء وإذا كان هؤلاء قد جاهدوا بسنانهم ، وهذا مجالهم ، فإن ما يناسبنا من مجال، وما يسعنا من ميدان إنما هو ميدان التبليغ والتذكير والتعليم وذلك باخلاص الكلمة ، وصدق التوجه والغيرة الحميدة على شعائر الاسلام .. فإن بذلنا وضحينا وأدينا الذى علينا كان فتح الله لنا فتحاً مبيناً..

---

(١) النور ٦١ - الفتح ١٧ .

(٢) التوبة ٩١ .

الأمر الثانى ..

دوام الخشية من الله تعالى ..

فهو مع تعبه ونصبه لا يستريح، يصل عمل النهار بعمل الليل، غيوراً على دينه ، حريصاً على دعوته، لا يرى فرصة إلا اغتنمها، ولا طريقا – ولو كان وعراً – إلا سلكه فى سبيل تذكير الناس وحملهم على الطاعة، ولا باباً – ولو كان مغلقاً – إلا وتوصل الى مفتاحه ليفتح الله على يديه مغاليق القلوب ، ويزيل به صدا النفوس، ويرفع به غشاوة العيون وهو يرى بهذا أن الله تعالى قد أجرى الخير على يديه، وأطلق فى الخير ساعديه وطوى له – فى سبيل الله – الأرض من تحت قدميه وهو مع ذلك يستشعر بالتقصير دائما على وجل أن يقبض الله قبل أن يؤدى الذى عليه،

لهذا فقد أثنى الله عليه مبيناً درجته ومكانته فقال تعالى :-

{والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة إنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون} (١)

لما نزلت تلك الآية سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عنها :

(أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون) ؟

قال : – (لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك يسارعون فى الخيرات)(٢)لأن قربهم

---

(١) المؤمنون ٦٠ – ٦١ .

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى / كتاب التفسير ٨ / ٢٩٩ .

من ربهم يطلعهم على عظمته وجلاله، وعظيم أنعمه عليهم والتى لا تحصى عداً، ولا يقدرون عليها شكراً فمهما قدموا من خيرات فهم على وجل من التقصير، قال الحسن (لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها)[1]

إن الداعية إلى الله تعالى لو اجتمعت فيه هاتان الخصلتان لكان حريا بتأييد الله ومعيته جديراً بأن يفتح الله له مغاليق القلوب، ويضع فى قلوب عباده حبه والالتفاف حوله ، ويقذف فى قلوب عباده هيبته، ويلقى فى نفوسهم الرعب منه، ومن هنا فإن الله تعالى يبارك فى عمله ويحقق على يديه الخير الكثير .

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ٦ / جزء ١٢ / ص ٨٨ .

الأصل السادس

• أمرنا معاشر الدعاة أن نخاطب الناس بألسنتهم وعلى قدر عقولهم ..

فأما مخاطبة الناس بألسنتهم فهى سنة الله مع رسله فى أقوامهم قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبن لهم﴾ أفادت الآية :

أن كل رسول جاء بنفس لغة قومه والهدف من وراء ذلك إنما هو البيان فالرسول مبين أمر ربه وموضحه وضوحا أشد من وضوح الشمس فى رابعة النهار وذلك ليقيم الحجة عليهم ولا يكون لهم عذر عند الله وما كانت بلاغة أى رسول من الرسل للمباهات والمفاخرة ، وانما لتعليم الناس وتذكيرهم.

ولقد بلغ من بلاغة النبى ﷺ أنه كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويحدثهم بما فى نفوسهم، وكان بارعا فى مخاطبة أصحاب الحاجات فكان يخاطب كل ذى لهجة بلهجتهم كأنها لهجته الوحيدة ..

(ومن ذلك كتبه الغريبة، التى كان يمليها ، ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم ، ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم، فيما يريد أن يلقيه اليهم.

وهى ألفاظ خاصة بهم، وبمن يداخلهم ويقاربهم، ولا تجوز فى غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية).

ومن هذا كتابه ﷺ لوائل بن حجر الكندى أحد أفيال حضرموت – {إلى الأقيال العباهلة ، والأرواع المشابيب ..

.. وفيه .. وفى التسيعة شاة لا مقورة الألياط، ولا ضناك وانطوا الثبجة ، وفى الثيوب الخمس.

ومن زنى مم بكر فاصعقوه مائة واستوفضوه عاما، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم.

ولا توصيم فى الدين، ولا غمة فى فراض الله تعالى

وكل مسكرا حرام، وائل بن حجر يترفل على الأقيال) [1]

وفى هذا النص تشريع لفريضة الزكاة من الغنم، وتشريع لهم فى الحدود إذا زنى البكر أو الثيب :

والملاحظ أن تلك اللغة التى خاطب بها هؤلاء، لغة لم تذهب خشونتها، كلغة قريش فهى لغة قوم أهل توعر وتقعر واستهلاك المعانى لذلك خاطبهم ﷺ بلسانهم تأليفاً لقلوبهم، وتوضيحا لما يريد من معانى ليتم المراد من البلاغ.

ولما أراد النبى ﷺ أن يبلغ نفس المعنى الى عامة العرب ممن تتسم لغتهم بالسهولة واليسر قال :

---

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٤٨ .

والأقيال : جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت .

والعباهلة : المقرون على ملكهم فلم يذالوا عنه .

والأرواع : الذين يرعون بالبهية ، والجمال.

والمشايب : جمع مشيوب ، وهو الجميل الزاهر اللون.

والنسيعة : أربعون شاه تطلق على أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان.

والمقورة الألياط : أى مسترخية الجلود.

والضناك : الموئقة الخلق الثمينة، يريد أن شاه الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم ، بل تكون وسطا وهو المراد بقوله : (وانطوا الثبجة) أى (اعطوا) بلغتهم ، فهم يبدلون العين ثوناً.

والثبجة : الوسط، ومنه ثبج البحر.

والسيوب : جمع ثيب ، وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين.

الجاهلية . ومم بكر ، ومم ثيب : أى ومن بكر ، ومن ثيب ، وعندهم يقلبون النون ميم.

والصقع الضرب ، والاستيفاض : النفى والتغريب، والأضاميم الحجارة الصغيرة.

والتوصيم : الفترة والتوانى ، ويترفل : أى يترأس.

انظر كتاب اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٤٨ وما بعدها .

(وفى صدقة الغنم فى سائمتها، إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاه) [1]

هذا حديث الرسول # والأول كذلك؛ وهما نص على فريضة الزكاة ومقدارها فى الغنم، لكن هناك فرق واضح فى السهولة والصعوبة فى الألفاظ.

وهذا دليل واضح على أن النبى ﷺ إنما كان يخاطب كل قوم بلسانهم حتى تنفتح له عقولهم وقلوبهم فيكون أدعى الى الاستيعاب والتنفيذ.

وحظ الداعية من هذا أن يكون كلامه سهلاً يفهمه جميع المخاطبين، وأن يتجنب التقعر والتكلف حتى لا يجعل حائلاً بينه وبين المخاطبين، وتضيع الفائدة. ولقد حذر الرسول من هذه الطريقة فى الحديث ومخاطبة الناس، وأعلن غضبه عليهم فى قوله ﷺ : (أبغضكم الىَّ الثرثارون والمتفيقهون) [2]

والثرثارون الذين يتكلمون بالكلام تكلفاً وتجاوزاً ، وخروجا عن الحد، من قولهم : نهر ثرثار لكثرة مائه، والمتفيهقون : تأكيد

وقال بشر بن المعتمد : (اياك والتقعير ، فإنه يسلمك اليبي التعقيد، فتهلك معانيك ويمنعك من اصابة مراميك) [3] وليس هذا من البلاغة (فليست البلاغة تعقيدا، وإنما هي سهولة ووضوح ، وقد مدح العرب من يستخدم اللفظ السهل ويبتعد عن الغريب والوحشى فقالوا : فلان له ألفاظ لا يشوبها

---

(١) فتح البارى بشر صحيح البخارى ٣ / ٣٧٢ – حديث رقم ١٤٥٤ عن أنس.

(٢) أخرجه الترمذى فى البر والصلة (٢٠١٨) ، والبغوى فى شرح السنه ١٢ / ٣٦٦ ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى برقم ١٦٤٢ .

(٣) انظر البيان والتبين لبشر بن المعتد ١ / ١٣٥ .

كدر، ولا يطمس رونقها التكلف، ولا يمحو طلاوتها التفهيق، أعذب من الماء، وأبعد من السماء) [1] فبلاغة الداعية تقتضى أن يأتى من الألفاظ ما يناسب قدر ثقافة المستمع ليكون بذلك قد وضع الحكمة فى موضعها. أ.هـ.

وأما مخاطبة الناس على قدر عقولهم :

فإن الداعية إذا ما أراد أن تصل فكرته إلى العقول وتستيقنها النفوس وتلبث فى القلب، فعليه أن يعرف طبيعة المدعوين، ويحدد مستوى فكرهم وتلك أول وأهم نقطة يرتكز عليها الداعية فى دعوته ...

يقول الدكتور أحمد أمين : [2]

إجادة الواعظ تحتاج إلى أمرين :

١- علم بنفسية الموعوظين، فيعرف ما يناسبهم وما لا يناسبهم وما يحركهم وما لا يحركهم.

٢- وعلم بأساليب الكلام الذى يتفق معهم . وقد قال علماء البلاغة فى كتبهم : « إن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال » .

فمتى جهل الواعظ بنفسية الذين يعظهم ، أو جهل أساليب الكلام الذى تتفق معهم ، انقلب الوعظ سخرية، وقد حدث أنى رأيت من أمثال هذا الفشل فى الوعظ مثلين، حزنت لهما حزناً شديداً.

الأول :

إنى رأيت واعظاً يعظ النساء فى مسجد الحسين رضى الله عنه، فيروى لهن حديثا ثم يريد أن يشرحه، فيدخل فى تفاصيل لا معنى لها :

---

(١) انظر كتاب : فن الخطابة والتوجيه . د. توفيق الواعي - د/ يسرى هانى ص ٩٢ .

(٢) مجلة الأزهر .

من ذلك أنه يسائلهن : لم حذف المسند اليه ؟ وهن لم يسمعن قط بمسند ولا مسند اليه ..

الثانى :

شهدت وأنا قاض فى الواحات الخارجة خطيبا يحذر الناس من قضاء الصيف فى باريس، مع أن السامعين فى غاية التأخر والانحطاط، ولم يسمعوا بباريس ولا بأوروبا وكل أملهم إذا رحلوا أن يرحلوا الى الصعيد أو إلى القاهرة.

الداعية إلى الله تعالى مثله كمثل الطبيب بل أشد، فإذا كان الطبيب الحاذق يقدر على تشخيص الداء والدواء، فإن الأولى بالداعية الى الله تعالى أن يعرف أمراض النفوس ويسوق اليها الدواء عذباً فراتاً..

ولقد أورد الامام الخارى فى هذا الصدد عدة أحاديث، من ذلك ما ذكره فى باب (من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا، وقال على : حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله !! فالداعية الى الله تعالى .. حريص كل حرص على أن يقرب الناس من الله لا يبعدهم عنه..

فهل يعقل أن يخاطب أمين عن نظرية التطور والنشوء والارتقاء ؟ وموقف الاسلام منها ..

أو أن يطرح عليهم قضية من القضايا التى أتعبت الأمة الاسلامية في عصورها الماضية، وكانت أخطر الأسباب التى أدت الى ضياعها ؟ إنه إن فعل ذلك ساق الناس الى تكذيب الله ورسوله .

رأيت داعية يحدث الناس [1] حديثاً لم ترُق إليه آذانهم، فكان لبعضهم فتنة .. يحدثهم أن الطفل إذا مات دخل الجنة ولو كان أبواه نصرانيين فقال له بعضهم كيف يدخل الجنة (ابن النصرانى) الذى ادعى أن الله له ولد ؟!

ثم أخذ الشيخ عكازه وهجر الداعية معلنا تبرمه وسخطه ..

إن ما يقوله الداعية – هنا – كان حقا .. لأن الرسول ﷺ قال :

(ما من مولود إلا يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقرأ قوله تعالى :

﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ [2]

ولقد أورد العلامة ابن حجر العسقلانى أكثر من حديث وأثر على أن أولاد المشركين إذا ماتوا صغاراً فهم فى الجنة، من ذلك ما أورده من حديث أبى يعلى عن أنس مرفوعا (سألت ربى اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم) [3] إسناده حسن. واللاهين هم الأطفال :

لكن فات هذا الداعية إنه كان يخاطب قوما لا تتسع مداركهم لاستيعاب مثل هذا الأمر .

---

(١) وكانوا على درجة كبيرة من التخلف العلمى الشرعى.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى اكتساب التفسير / سورة الروم / ٨ / ٣٧٢ .

(٣) انظر فتح البارى فى كتاب الجنائز / ما قيل فى أولاد المشركين ٣ / ٣٩٠ .

منهج القرآن العظيم :

لقد نزلت آيات القرآن الدالة على عظيم صنع الله تعالى فى الافاق وفى الأنفس البشرية، ولفتت الأنظار الى القدرة الالهية الشئ الذى توصلت الى بعضه النظريات العلمية والاكتشافات الحديثة.

مثل دوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشمس والجاذبية الأرضية .. الخ.

وكان هذا اعجازا من القرآن فى عصر العلم، وكان مع هذا الاعجاز اعجازا آخر : أن اللفظ القرآنى كان يشير الى هذه الآية بأسلوب يناسب عقلية ابن الصحراء فيفهم فهما لا ينكره العقل ولا يتعارض مع الشرع.

ففى قوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [1] قال ابن كثير (فسره بقوله تعالى : اخرج منها ماءها ومرعاها) ونقل عن ابن عباس قوله :

[ودحاها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرجال والسبل والأحكام) [2]

هذا ما جاء فى تفسير الامام بن كثير فى القرن الثامن الهجرى، ولم تكن البشرية قد هديت الى ما هديت اليه فى القرن الثالث عشر الهجرى :

يقول الشيخ سيد قطب :

(ودحوا الأرض تمهيدها وبسط قشرتها بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكون تربة تصلح للانبات ، وارساء الجبال، وهو نتيجة لاستقرار الأرض، ووصول درجة حرارته الى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة) [3]

---

(١) سورة النازعات ٣٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم للامام بن كثير / ٤ / ٤٦٨ .

(٣) تفسير الظلال .

والملاحظ هنا أن المفسر قد تأثر بما وصل اليه العلم الحديث من نظريات تثبت كروية الأرض، وأن قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) شارة الى أن الأرض كروية وذلك لما يبين الدحية وهى البيضة [1] وما بين الأرض من تشابه هكذا جاء النص القرآنى ملائما لكل العصور ومخاطبا كل العقول يناسب كل فكر، فكر العربى الذى نشأ بين أحضان الصحراء كما ناسب فكر الانسان فى عصر التقدم التكنولوجى ...

المثال الثانى :

قوله تعالى :

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [2]

لقد خاطب القرآن الكريم بهذه الآية كل العصور وكل الأزمنة.

حيث ذكر الانسان بما أنعم عليه وسخر له من وسائل الانتقال، وكانت آنئذ الخيل والبغال والحمير - ولا تزال - ثم جاء عجز الآية متسعا لكل اختراع فى وسائل المواصلات، فنحن نقرأ تلك الآية ونؤمن أن الله تعالى سوف يهدى العقل البشرى الى اختراع وسائل جديدة للنقل والمواصلات غير التى نعهدها من قطارات السكك الحديدية، ومن الطائرات .. الخ وستظل الآية الكريمة شاهد اعجاز فى هذا المقام ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾.

لقد أشار القرآن الكريم إلى تطور وسائل المواصلات حتى يركب الانسان الهواء .. لكنه لم يصرح لأنه لو صرح لما ناسب التصريح عقول البشرية آنئذ فلزم التلميح ليناسب كل عصر، لأنه كتاب الله الى العالمين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

[1] انظر مفردات القرآن تفسير وبيان ، د/ محمد حسن الحمصى فى تفسير آية النازعات .

[2] النحل ٨ .

منهج السنة :

عن الأسود قال : قال لى الزبير .. كانت عائشة تسر اليك كثيرا، فما حدثتك قلت : قالت لى : قال النبى ﷺ :

(يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال بن الزبير : بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين : باب يدخل الناس، وباب يخرجون، ففعله ابن الزبير) (١)

وفى رواية أخرى ..

أن رسول الله ﷺ قال لها : ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد ابراهيم ؟ فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد ابراهيم ؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت (٢)

وفى رواية ثالثة عن عائشة أيضا :

سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْر أمن البيت هو ؟ قال نعم . قلت : فما لهم لم يدخلوه فى البيت قال :

إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت : فما شأن بابه مرتفعا ؟

قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاء وا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألصق بابه بالأرض (٣)

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى / كتاب العلم / باب من ترك بعض الاختيار ١ / ٢٧١ برقم ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٥١٣ برقم ١٥٨١ .

(٣) المصدر السابق حديث رقم ١٥٨٤ .

وفى رواية رابعة عن عروة عن عائشة رضى الله عنها :

أن النبى ﷺ قال لها :

(يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين باباً شرقياً، وباباً غربياً فبلغت به أساس ابراهيم) [1]

إن مجموع تلك الروايات الأربع يشرح لنا الحديث شرحا وافيا وتبين لنا بجلاء أن رسول الله ﷺ أراد أن يعود بالبيت الى ما كان عليه يوم أن أوحى الله إلى خليله ابراهيم عليه السلام ببناءه لكن الذى منعه من ذلك هو مراعاته لحال الناس فهم حديثوا عهد بجاهلية ويكفر ولم يستو الايمان فى قلوبهم، ولا تزال أفعال الجاهلية التى لا تنسى بين يوم وليلة - ماثلة للعيان أمامهم ، فلعلهم لهذا لا يفهمون ما يريده الرسول ﷺ فيقع ذلك منهم موقفا سيئا، قد لا تحمد عقباه، فكان من الحكمة ترك هذا الصنيع حتيى يؤصل الاسلام فى قلوبهم وهذا الأمر يحتاج الى وقت يطول وقد يقصر، وهو شارة منه ﷺ الى الخلفاء أن يقوموا بهذا الدور متى زالت علة المنع لذلك جاء سيدنا عبد الله بن الزبير رضوان الله عليه وفعل ما أشار الى فعله المصطفى ﷺ.

يقول الامام الحافظ بن حجر:

وفى الحديث معنى ما ترجم له [2] لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة

---

١) حديث رقم ١٥٨٦ (البخارى) .

٢) وهو : - باب (من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا فى أشد منه) هذا هو العنوان الذى وضعه البخارى لهذا الحديث.

جدا فخشى ﷺ أن يظنوا لأجل ريب عهدهم بالاسلام، إنه غير بناءها لينفرد بالفخر عليهم فى ذلك .. ويستفاد منه : ترك المصلحة لأن الوقوع فى المفسدة.

ومنه : ترك انكار المنكر خشية الوقوع فى أنكر منه .. (١)

وإن الامام يسوس رعيته بما فيه من اصلاحهم، ولو كان مفضولا، ما لم يكن محرما.

بهذا الموقف العملى العظيم من رسول الله ﷺ يتأكد فى حق الدعاة مراعاة مقتضى الحال .. وأن يكون لدى الداعية نظرة ثاقبة فى عواقب الأمور، وأن يتخير الوقت المناسب للتبليغ.

النموذج الثانى :

قوله ﷺ :

يا معاذ بن جبل. قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ. قال : لبيك يا رسول الله وسعديك « ثلاثا » قال : « ما من أحد يشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار».

قال : يا رسول الله أفلاع أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلموا وأخبر بها معاذ عند موته تأثما) (٢)

وفى رواية (من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة)

قال ألا أبشر الناس ؟ قال (لا : انى أخاف أن يتكلوا) (٣)

---

(١) هذا لفظ بن حجر فى الفتح فاقرؤها فى حياة الصحابة ص ٢٧ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى/ كتاب العلم / باب من خص بالعلم قوماً دون قوم/١/٢٧٢.

(٣) المصدر السابق حديث رقم ١٢٩ .

معنى الرواية الأولى :

أن الرسول ﷺ قيد الشهادتين بالتصديق القلبى ، فيخرج بهذا المنافق..

قال الطيبى (قوله صدقاً » أقيم هنا مقام الاستقامة لأن الصدق يعبر به قولا عن مطابقة القول المخبر عنه، ويعبر عن تحرى الأخلاق المرضية كقوله تعالى : {والذى جاء بالصدق وصدق به} [1] أى حقق ما أورد قولا بما تحراه فعلا) [2]

ومعنى الرواية الثانية :

أن من مات على التوحيد الخالص مات على خير وكان من أهل الجنة.

حظ الداعية من هذا الحديث :

أن لا يحدث بكل ما سمع، وأن لا يلقي بالحديث على ظاهره دون أن يزيل الالتباس الذى قد يوهمه ظاهره.

وتلك آفة الكثيرين من الخطباء فى عصرنا الحاضر يأتون بمثل هذا الحديث دون أن يشرحوا للناس ويبينوا الفهم السليم والقول السديد منه، فهو بعضهم يأتى بحديث.

« من قال لا اله الا الله دخل الجنة »

« من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »

الزمر ٣٣ .

فتح البارى ١ / ٢٧٣ .

لم يقل وحـرمت عليـه النار .. وإنما أهل السنة على أن المسلم إذا اقترف الكبائر وتلوث بها ومات على غير توبة فأمره مفوض الى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، وأنه يطهر من كبائر ذنوبه فى النار ثم يخرج بشفاعة النبى ﷺ.

ومما زاد الطين بلة أن بعض الخطبـاء يأتى بحـديث أبى ذر دون أن يبين المراد منه وفيه « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » فقال أبو ذر وإن زنا وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : وإن زنا وإن سرق ، فقال أبو ذر وإن زنا وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : وإن زنا وإن سرق، ثم كرر الثالثة فقال الرسول ﷺ : « وإن زنا وإن سرق رغم أنف أبى ذر.»

فالحديث ظاهره إن للمرء أن يزنى ما يشاء ويسرق ما يشاء طالما أن معه حصانة وضماناً من النار وهى قوله لا اله الا الله محمد رسول الله فلا يخف، فهذا الفهم الذى يلقيه بعض الخطباء على آذان الناس يفتح الطريق أمامهم لاقتراف بعض الموبقات، فهل يعقل أن يكون داعية الاسلام داعية الى الهلاك.

حينما يكون حديثه فتنة تصد الناس عن الحلال وتفتح لهم طريقا واسعاً الى الحرام ؟

الواجب على الداعية حينئذ

أن يضم الأحاديث بعضـها الى بعض، وأن يقرأ رأى العلماء حولها وأن يكون عنده رصيد من المعرفة يستطيع أن يسبر بها غور الحديث، وأن يقف على القرينة التى تحول دون المعنى الظاهر،

وأن يبين مراد النبى ﷺ من مثل هذا الحديث :

وإن الناس يوم القيامة سيكونون أصنافا شتى :

١- من يدخلون الجنة وينجيهم الله من هول المطلع وأولئك هم المؤمنون الذين تابوا الى الله وأقلعوا عن الآثام قبل أن يقطع الموت آمالهم ..

٢- من يكونون على جبل الأعراف وهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم وهؤلاء مآلهم الجنة فيما بعد ..

٣- من يطهرون بالنار ثم يخرجون منها وهم أصحاب الكبائر ..

٤- المخلدون فى النار أبدا وهم أهل الشرك واليهود والنصارى .. الخ.

وعلى الداعية وهو يتناول النوع الثالث « أصحاب الكبائر » ..

أن يرهب الناس من النار ويحذرهم من الاستهانة بها، وأن يصف لهم النار بحميمها وزقومها وجحيمها وقطرانها .. الخ.

فإنه إن فعل ذلك، ووضح نحوا من ذلك، فإنه يكون قد نجح فى حمل الناس على المبادرة الى التوبة النصوح وتطهير المجتمع من الرذائل :

آفة الدعاة فى هذا العصر :

لقد عجز الكثير من الدعاة عن استيعاب القضايا المعاصرة ، واقتصرت قراءتهم حول بعض القضايا الدينية مثل : الصلاة - الصوم - الحج - ... الخ.

وكل هم الواحد فيهم أن يقول قال الله تعالى .. قال ﷺ فقط .. دون أن يعكس أثر الصلاة على الناس :

ودون أن يبين أن أركان الاسلام الخمسة كفيلة بأن تمحوا الجريمة من لجتمعات وتحقق فيه المثالية، وأنه لا سبيل للشعوب أمام القضاء على جريمة إلا بتنفيذ تلك الفرائض تماما على الذى أحسن.

يقول الدكتور أحمد أمين :

ثم إن عيوب الوعاظ عندنا أنهم كثيرا لا يريدون من شئون الدنيا شيئا، والدنيا قد أصبحت غير الدنيا، وكل عملهم أنهم ينقلون من كتاب قديم، أو نظرة قديمة خذ لذلك فمثلا : كلامهم في أكثر وعظهم فى المساجد، وفى خطبة الجمعة على المنابر، فإنه يدور حول طلب التزهد والرضا بما كان ولكن هل الزمان صالح لهذا ؟ إن الزمان قد تغيروأصبحت النصيحة الصحيحة، الحث على الكفاح فى سبيل العيش، والعمل الدائم على رفع مستوى المعيشة، ومطالبة الحكومة أن تعمل لصالح الشعب، وأن تعمل للفقير كما تعمل للغنى وتفهم الفلاح أن له حقا على الحكومة أن يسكن بيتا نظيفا، ويشرب ماءا نظيفا إلى آخر ذلك ..

أما المطالبة بالتزهد، فأصبح نمطاً قديماً وأسلوباً بالياً، لعلها اخترعت لتخدير، أعصاب الناس وعدم مطالبتهم بحقوقهم، وصبرهم على الفقر ليتمتع الأغنياء كل التمتع بغناهم، ورمى الحمل على القدر الذى جعل هذا غنيا، وهذا فقيراً ..

كأن الجهد والعمل والنشاط والكد لا أثر لهما فى هذا الموضوع ..

إن الخطأ الجسيم الذى يقع فيه الكثير ممن يتناولون الحديث عن الزهد والتجرد من زخارف الحياة الدنيا .. الخ تلك المعانى .

أنهم يصورونها على أنها الاسلام يقولون .. هكذا الاسلام . ويقع ذلك منهم بصورة يفهم منها المستمع أن الاسلام جاء لاعمار الآخرة وترك الدنيا..

والذى يبدو لى أن الداعية هذا انما يجهل شمولية الاسلام فى هذا الجانب ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه.

لم يفهم قوله تعالى :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ القصص ٧٧.

حتى وهو يحدث الناس فى الزهد لا يقدر على تفهيمهم الزهد وهو الترك وترك الشئ إذا وجد، إذا فلن تكون زاهد إلا إذا ملكت وترفعت وتجردت فهل يسمى الفقير زاهدا ؟ لم يقل أحد بهذا، إنه لم يملك شيئا حتى يزهد فيه.

أين هو من قوله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ الأعراف ٣٢ .

فهى للذين آمنوا فى الدنيا يشاركهم فيها الذين كفروا لكنها فى الآخرة خالصة لا يشاركهم فيها أحد ..

لكن لماذا لم يشرك المشركين فى الذكر ...

إشارة الى أن المؤمنين لابد وأن يتسيدوا الدنيا ويوجهوا دفة الحياة فيها لأنهم هم الجديرون باصلاحها.

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ الحج ٤١ .

والكفار مترفون فى الشهوات بسبب بعدهم عن الله .. وهلاك البلاد يكون على أيديهم.

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ الاسراء ١٦.

فهى إشارة واضحة للأمة الاسلامية أن تستوعب كل جديد فى العلم والتقنية حتى يكونوا قوة فى العالم تحقق السلام والأمان والرخاء وتريح الناس من سعار الشهوات الآثمة وتأخذ بأيديهم إلى الله ..

إننا نريد من الداعية أن يستوعب دينه جيدا، ويستوعب كل ما يدور حوله ويخاطب الناس بمفهوم الاسلام الحق بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر ويناسب العقول المصغية له ..

وإلا كان فتنة وأضر من حيث أراد أن ينفع.

من خلال هذا العرض الموجز لتلك النماذج من الكتاب والسنة يتبين لنا ..

أن الداعية إلى الله تعالى لن يستطيع أن ينسجم مع دعوته، إلا إذا انسجم مع المدعوين ولن يقدر على العطاء إلا إذ عرف ما يقال كيف يقال وما لا يجب أن يقال أن لا يقال.

بهذا يكون الدعاة قد استوعبوا معنى قوله ﷺ { أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم }.

الأصل السابع

أن الابتلاء من لوازم هذا الطريق

من سنن الله مع الدعاة أنهم يتعرضون للبلاء دائما ، قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (١)

---

(١) البقرة الآية رقم ٢١٤ .

وفى الآية :

١- أن الجنة حفت بالمكاره، وإن الجنة سبيلها الابتلاء والصبر عليه.

٢- أن سبيل من كان قبلنا أنهم أحيطوا بالبأساء والضراء وزلزلوا حتى استبطأوا النصر وقالوا متى نصر الله ؟

يقول الشهيد سيد قطب ..

« وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة - إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه. من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله إن سؤالهم « متى نصر الله » ليصور مدى المحنة التى تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتنبعث منها ذلك السؤال المكروب « متى نصر الله » [١] إنها لدرجة من الابتلاء والتمحيص لا يرقى اليها إلا من كان الإيمان فى قلبه كالجبل.

ولقد وضح لنا النبى ﷺ هذا الأمر وضوحا جليا، فمن ذلك :

أن حباب بن الأرت قال ..

(أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بردة، وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت : ألا تدعوا الله، فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلي حضر موت ما يخاف إلا الله - زاد بيان الراوى - والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون) [٢]

---

(١) تفسير الظلال ١ / ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح حديث رقم ٣٨٥٢ والذئب على غنمه عطفت على المستثنى منه، أى لا يخاف إلا الله ولا يخاف إلا الذئب على غنمه. قيل عطف على المستثنى وذلك إشارة إلى ما حدث على عهد عمر بن عبد العزيز حينما كان يحرس الذئب الغنم.

من خلال الآية القرآنية، والحديث النبوى الصحيح يتبين لنا أن طبيعة طريق الدعوة إنما هو محفوف بالمكاره ملئ بالعقبات، مفروش بالأشواك وتلك سنة الله مع كل داعية أن تواجهه العقبات، سواء أكانت جوانب أرضية أم سفاهات شيطانية فهو مع هذا وذاك لابد أن يوطن نفسه ويستشعره أنها بداية السلامة ..

أما إذا جزع وقنط فهو غير فاهم لطبيعة هذه الدعوة غير مخلص لها..

الحكمة من الابتلاء

الحكمة الأولى :

١- لتميز النائحة من الثكلى

ف (كل يدعى وصلا بليلى .·. وليلى لا تقر لهم وصلا بذاكا)

فكم على الساحة من متحدث باسم الدين، لكنهم طرائق قدداً. فمنهم المؤمن الصادق الذى آمن بدعوته، وصدق بكلام ربه، وأعجب بمبادئ الإسلام، ورأى فيها خيراً اطمأنت اليه نفسه، وسكن له فؤاده، أنه ذلك الذى وصفه الله بقوله ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١)

ذلك هو الداعية الصادق الذى فهم ما يدعو اليه، وهو الذى يحفظه الله فى الشدائد ويثبته عند المحن.

---

(١) الأحزاب الآية رقم ٢٣ .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١)

ومنهم النفعى .. الذى اتخذ الدعوة وسيلة يتكسب بها، فهو بها موظف، لم يعتبرها وسيلة للآخرة، ولكن لعرض من أعراض الدنيا ..

وهذا شأن كثير من الناس ، يعتبرون أنفسهم خطباء لا دعاة ..

إن تأخرت رواتبهم أو حوافزهم، ضنوا وبخلوا بالحديث ولم يتكلموا لأن أجرهم عليه قد توقف.

أولئك الذين عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا..

ومن هذا الصنف من يتصدر الدعوة ليعوض نقصا فى نفسه، أو ليحقق زعامة عز عليه تحقيقها إلا فى الدين ..

ومن هذا الصنف من يتكلم من أجل شهوة الكلام، ومنهم ... ومنهم.

وهنا يأتى الابتلاء كى يمحو من عليي طريق الدعوة أصحاب المنفعة المعبر عنهم بـ (النائحة) التى تأخذ أجراً على نواحها ويثبت على الطريق من عرفه ووطن نفسه عليه ..

وصدق الله ..

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، أما ما ينف الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢)

فلولا أن الابتلاء كان سنة من سنن الله لاختلط الحابل بالنابل (أى

---

(١) إبراهيم الآية رقم ٢٧ .

(٢) الرعد الآية رقم ١٧ .

اضطربت الأمور) – ولسلك هذا الطريق المترفون قبل المتجردين والمنافقون قبل الصادقين، بل ولصارت للطغاة اليد الطولى فى الدعوة قبل الدعاة ...

فأراد الله أن يجعل الابتلاء من لوازم طريق الدعوة ..

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ (١)

﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٢)

ولكن لابد من الابتلاء ليعلم المجاهد والصابر، وتتكشف المعادن من رفع لواء الدعوة حبا لها من غيره، فتحت عنوان (الابتلاء يعمل على اصطفاء العناصر القوية الصالحة) يقول **د/ عبد الرحيم همام** (فلا يدخل فى العمل من يكون عبأ على العاملين ، وإنما يأتى الى الدعوة ويثبت عليها من تمكن الايمان فى قلبه، ومن يبتغى وجهه الله والدار الآخرة لأن المرء إذا علم أن المغارم أكثر من المغانم، فرنه لا يختار المغارم إلا إذا رضى بالآجلة عوضا عن العاجلة) (٣)

ويعد نزول البلاء يمحص الصادقون من الكاذبين، وينتقى عنها أصحاب الخبث، كما ينفى عن الحديد خبثه، وينصهر معدنه الجيد إذا أدخل النار ..

وحينئذ، يبقى الصادقون على وجه الأرض علامات ونجوم بهم الناس يهتدون.

---

(١) الأنفال الآية رقم ٣٧ .

(٢) العنكبوت الآية رقم ١ – ٣ .

(٣) قواعد الدعوة إلى الله ص ٨٠ .

الحكمة الثانية :

إن الابتلاء تكفير لسيئات الداعية ورفع لدرجته ..

ولا يعوق الداعية مثل السيئات، ولا يجعله يتثاقل مثل الذنوب، من هنا فإن رحمة الله تدركه فيصيبه فيرفع درجته لينطلق الداعية فى طريق دعوته.

الحكمة الثالثة :

إن ثبات الداعية فى المحن والشدائد تلقى فى قلوب المدعوين شعورا عميقا بصدق، وبالتالى فإنهم يقبلون عليه.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (لما طعن حرام بن ملحان يوم بدر معونة، قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال فزت ورب الكعبة) (١)

إن ثبات هذا الداعية العظيم، ونظرته الى الموت على أنه فوز كبير لا شك فيه، جعل قاتله يتساءل :

ما فاز ؟! رجل يراق دمه ويقول فى غبطة وحبور فزت ورب الكعبة وأخذ يسأل حتى أدرك ما أدركه (حرام بن ملحان) إن القتل فى سبيل الله شهادة وفوز كبير، فأسلم الرجل.

وهكذا .. كم دخل فى الاسلام بثبات أولئك الدعاة فى الشدائد، إن بكل قطرة دم سالت على الأرض من دمائهم الذكية أنبت الله بها رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وما تفتقت أكمام الأرض، وما انتشرت دعوة الاسلام فيها إلا بدماء

---

(١) خ ٤٠٩٢ .

الشهداء من صحابة النبى ﷺ ، والمجاهدين من بعدهم (إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها فى بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضئ، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية، فتتلألأ فى أعين أعدائها وخصومها، وعندئذ يدخلون فى دين الله أفواجا كما وقع، وكما يقع فى كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون فى أول الطريق حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز اليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين) [1] وهى سنة الله فى كل وقت وحين.

الحكمة الرابعة :

(إن الابتلاء يزيد من ترابط الدعاة الى الله تعالى ، ويقوى فيهم رابطة الحب والاخاء).

وإذا نظرنا إلى أفغانستان قبل الغزو الشيوعى لها نجدها خليطا من فرق متباينة متباعدة، بينهم بعد المشرقين، لكن لما اصطلوا بنار واحدة كانوا فى أتونها جماعة واحدة، وأبلوا بلاءاً حسناً، وقاتلوا فى سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص، حتي نصرهم الله على عدوهم، وكان جهادهم أعظم الأسباب فى انهيار الامبراطورية العظمى وتقطع أوصالها.

وبعد النصر المعجزة ..

دخل بينهم حفيد (شاس بن قيس) [2] فأثار فيهم الضغائن من جديد

---

(١) تفسير الظلال ١ / ٢١٩ .

(٢) شاس بن قيس يهودى حاقد، قد شاخ الحقد على الاسلام فى قلبه، كما شاخ بدنه، مر على نفر من الأوس والخزرج، يتحدثون، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة، فأمر شابا معه من اليهود أن يجلس معهم فيذكرهم بيوم بعاث ففعل، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان - أوس بن قيظى من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، وغضب الفريقان، وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك النبى ﷺ =

فكان يأسهم بينهم شديداً لأنهم لم يجدوا من يقوم بدور الرسول ﷺ فى اطفاء الفتنة.

وإذا كانت المصائب تجمعنا المصائب، فإنها فى سبيل الله تقرب بين النفوس وتشحذ العقول وتقوى الظهر.

الحكمة الخامسة:

أن نزول البلاء يجعل الداعية دائما على وجل واشفاق أن لا يثبت بسبب ذنوبه فيدفعه اشفاق ووجله الى التوبة النصوح ودوام الاستغفار واحسان العمل، والحرص على أن يكون أهلا لنصر الله ومعيته.

نماذج من ثبات الدعاة على الحق

لقد ضرب أنبياء الله لنا أروع الأمثلة على تحمل الشدائد فى سبيل الله فما من نبى إلا وأوذى.

قال تعالى:

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾(١)

= فجاء حتى وعظهم، وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا. فنزل فى أوس وجبار [يا أيها الذين امنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين] وفى شاس بن قيس [يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء] ولو وجد الأفغان من يطفئ نار الفتنة قبل أن تدمر لكان لهم اليوم شأن طيب، لكن لا يزال اليهود يقومون الأطراف المتصارعة بدور جدهم الملعون شاس بن قيس بينما لم يجد المسلمون فى أفغانستان من يقوم بدور نبيهم ﷺ.

(١) الفرقان الآية رقم ٣١.

فكانوا كثيرا يسمعون ما يكرهون من أولئك الطغاة، وهى سنة عامة جعلها الله مع كل نبى من أنبيائه أن يبتلى بواحد من المجرمين. أو بملإ منهم، ليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء، وليمحضهم، ويمحق الكافرين. ثم يبين القرآن أن هؤلاء الطغاة والبغاة من سبيلهم واحد فى التكذيب كأنها وصية تعارف عليها الجميع ..

﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (١) وما تواصوا بذلك وإنما طبيعة الكفر واحدة، ولم يكن حظ الأنبياء التكذيب فقط بل إن كثيرا منهم قد قتل بأيدى المجرمين ..

قال تعالى :

﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ﴾(٢)

ولقد أوذى رسول الله ﷺ من أعدائه فى مكة وخارجها كثيرا، فصبر صبرا جميلا.

ومن ذلك :- (٣)

(لما نزلت سورة المسد، وسبب نزولها أن أبا لهب كان يدور حول النبى ﷺ حيث دار يكذبه أمام الناس ليصد عن سبيله، وكان معه حجر يقذف به النبى فى عقبة حتى يدميه، وكانت زوجه أم جميل تضع الشوك أمام بابه وفى طريقه، وتثير الفتنة.

---

(١) الذاريات الآية رقم ٥٢ .

(٢)

(٣)

فنزلت السورة، ولما نزلت وسمعت أم جميل ما قيل فى شأنها وزوجها أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهرٌمك الكف من الحجارة فلما وقفت عليهما أخذها الله ببصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر.

فقالت :

يأبا بكر : أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله وإنى لشاعرة، ثم قالت :

مذمما عصينا وأمره أبينا . ودينه قلينا.

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر :

يا رسول الله أما تراها رأتك ، فقال ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها على).

إن هذه القصة وغيرها خير شاهد على ما كان يصيب قدوتنا # من ايذاء ولئن كان الله تعالى قد عصمه من ايذاء تلك الكافرة، فلقد يصيبه ﷺ من سفهائهم الذى يرفع به درجته، وليبين أن أشد الناس بلاءاً الأنبياء.

* ولقد ربى ﷺ الصحابة على الصبر والتحمل والثبات فكانوا مثالا عظيما – ومن ذلك .. الصحابى الجليل حبيب بن زيد الأنصارى.

بعث به النبى ﷺ برسالة إلى مسيلمة الكذاب ..

فما كاد مسيلمة يقف على ما جاء فيها حتى انفتح صدره ضغينة وحقدا، وبدا الشر والغدر على قسمات وجهه الدميم الأصفر، أمر بحبيب بن زيد أن يقيد وأن يؤتى به إليه ضحى اليوم التالى.

فلما كان الغد تصدر مسيلمة مجلسه ، وجعل عن يمينه وعن شماله الطواغيت من كبار أتباعه، وأذن للعامة بالدخول عليه، ثم أمر بحبيب بن زيد فجئ به إليه، وهو يرسف فى قيوده ..

وقف حبيب بن زيد وسط هذه الجموع الحاشدة الحاقدة مشدود القامة مرفوع الهامة شامخ الأنف، وانتصب بينها كرمح سمهرى أحكم المثقفون تقويمه.

فالتفت اليه مسيلمة وقال :

أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فقال نعم أشهد أن محمدا رسول الله .

فتميز مسيلمة غيظا وقال :

وتشهد أنى رسول الله ؟

فقال حبيب فى سخرية لاذعة ..

إن فى أذنى صمما عن سماع ما تقول ..

فامتقع وجه مسيلمة، وارتجفت شفتاه حنقا، وقال لجلادة اقطع قطعه من جسده فأهوى الجلاد على حبيب بسيفه وبتر قطعة من جسده فتدحرجت على الأرض ثم عاد مسيلمة عليه السؤال نفسه :

أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

قال : نهم أشهد أن محمداً رسول الله.

قال : وتشهد أنى رسول الله .

قال : قلت إنى فى أذنى صمما عن سماع ما تقول.

فأمر بأن تقطع من جسده قطعة أخرى ، فقطعت وتدحرجت على

الأرض حتى استوت الى جانب أختها، والناس شاخصون بأبصارهم اليه مذهولون من تصميمه وعناده.

ومضى مسيلمة يسأل ، والجلاد يقطع ، وحبيب يقول :

أشهد أن محمداً رسول الله .

حتى صار نحوٌ من نصفه بضعا مقطعه منشورة على الأرض، ونصفه الآخر كتلة تتكلم.

ثم فاضت روحه، وعلى شفتيه الطاهرتين اسم النبى ﷺ الذى بايعه ليلة العقبة .. اسم محمد رسول الله.

نعى الناعى حبيب بن زيد إلى أمه نسيبة المازنية، فما زادت على أن قالت ..

من أجل مثل هذا الموقف أعددته.

وعند الله أحتسبه.

لقد بايع الرسول # ليلة العقبة صغيراً ..

ووفى له اليوم كبيراً..

ولئن أمكننى الله من مسيلمة لأجعلن بناته يلطمن الخدود عليه.

ولقد أذهب الله غيظ قلبها، وشفي صدرها، حينما انطلقت مع تلك الأسود الضارية من جند الله من صحابة النبى فى حرب اليمامة التى انطلقت لتطيح برأس الكفر وجنده مسيلمة، و لقد شوهدت نسيبة تشق الصفوف كاللبؤة الثائرة [1] وهى تنادى :

---

(١) اللبؤة : أنثى الأسد وهو تصوير للثورة الضارية والهياج النفسى، والغيظ القلبى الذى تملك فؤاد تلك المجاهدة، واحاطها من كل جانب، تريد أن تنتقم من عدو الله مسيلمة الكذاب.

أين عدو الله ؟

دلونى على عدو الله، فلما انتهت اليه وجدته مجدلاً على الأرض، مضرجا فى دمائه، وسيوف المسلمين تتخن، فطابت نفسا ، وقرت عيناً..

إذا رأت انتقام الجبار لفتاها البر التقى، من قاتله الباغى الشقى ..

وإذا نظرنا إلى ما فى تلك القصة من عظات ودروس وعبر، لعز علينا أن نسير غورها لنستخلص منها دروسها كاملة غير منقوضة ..

ولكن ما يبدو لنا ويظهر ..

تلك البطولة الخارقة التى قدمها فتى الاسلام حبيب بن زيد الأنصارى، والتى يعز على أى بطل أن يقدم مثلها إلا من كان فى فهم حبيب لدينه وايمانه العميق بربه ..

لقد استوعب حبيب بن زيد الدرس جيدا من المربى الأعظم سيدنا محمد ﷺ حينما قال :

(لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، وما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه) (١)

وأراد أن يكون صورة عملية ترضى الله ورسوله، ويكون تجسيداً للصورة المثلى التى ضرب بها النبى # فى الثبات على المبدأ والعقيدة.

إن هذا الموقف ليعكس لنا تلك الحلة الإيمانية العالية التي كان يتمتع بها جيل الصحابة، ومدى استيعابهم لهذا الدين..

---

(١) البخارى مع الفتح رقم ٣٨٥٢ .

فأولى بنا – معشر الدعاة – أن نعيش لديننا كما عاشوا ، ونضحى بأوقاتنا وأموالنا وأنفسنا كما ضحوا، يمكن الله لنا فى الأرض.

ولقد جاء رد فعل أمه حين سماعها النبأ المر الأليم أروع من ابنها فى موقفه المعجزة ..

قالت :

من أجل مثل هذا الموقف أعددته..

وها هي تقطف ثمار تربيتها، وأن يسجل ولدها فى عداد الأبطال الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، أتكون الخنساء أفضل منها ؟!

لا... أتكون أسماء بنت أبى بكر التى دفعت بولدها عبد الله بن الزبير ليحارب الطغاة ليلقى حتفه على أيديهم شهيداً لله .. أنه مجتمع كانت الأمهات تتبارين فيه – أيتهن التى تقدم ولدها فداءاً لدعوة الاسلام .

أما أمهات اليوم فهن فى غفلة عن تلك المعاني السامية ، وهذا الفهم الدقيق ...

فأولى بالدعاة أن يأخذوا بأيديهن إلى الله ويرشدنهن الى دورهن على أن الواحدة منهن مدرسة .. إذا أعدت أعدت شعباً طيب الأعراص.

ونحن فى غمار هاتين الصورتين المشرقتين (صورة الأم وابنها) التى حجب لضوئهما نور الشمس..

ينبغى ألا ننسى الاشارة إلى هذا الطاغية الذى اخترق مبدءاً تعارف عليه جميع ملوك الأرض، وهو « إن الرسل لا يقتلون »

وهو يعطينا اشارة واضحة إلى الطغاة لا يعرفون معروفا ولا ينكرون

منكرا قانونهم أهواؤهم يذلون ما شاءوا ولو كان عزيزاً ، ويعزون ما شاءوا ولو كان ذليلا وما أخر المسلمين عن موطن السيادة إلا الطواغيت من الحكام.

عاقبة الابتلاء

ولقد بين الله تعالى عاقبة الابتلاء وأنه مرحلة تنقضى بعد أن يرى صدور أوليائه ويختبر معدنهم، وإنهم هم الجديرون بالخلافة على الأرض ..

إذ الخلافة لها مؤهلات وضحها ربنا فى قوله تعالى :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ (١)

هذه هى المؤهلات التى بها يمكن لمن رآه أهلا لها ..

ولا تستطيع أى جماعة على وجه الأرض أن تصل اليها إلا إذا محصت فليس الهدف من الابتلاء هو العنت للأمة الاسلامية، ولكنه التمحيص حتى يزيل عنها الخبث وتنصهر الطاقات الخاملة فتنشط وتزدهر حينئذ تكون أهلا للتمكين، وأهلا للحفاظ عليه.

يقول الشيخ سيد قطب ..

(الأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفر كل استعدادها وتجمع كل طاقاتها، كى ينمو نموها، ويكمل نضجها، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها

---

(١) الحج الآية رقم ٤١ .

والنصر السريع الذى لا يكلف عناءاً، والذى يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين، يعطل كل الطاقات عن الظهور، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق إن النصر السريع الحصاد اللين سهل فقدانه وضياعه.

أولا : لأنه رخيص الثمن ، لم تبذل فيه تضحيات عزيزة،

ثانيا : لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم، وتحشد لكسبه، فهى لا تحفز، ولا تحشد للدفاع عنه).

ولما يرى الله الأمة القائمة على دينه قد وصلت الى هذا الهدف، حينئذ تتنزل عليهم رحمته، ويأذن بهلاك الطغاة الجبابرة ويكون الجواب حينما يسألون ﴿ متى نصر الله . . . ألا إن نصر الله قريب ﴾ (١)

(إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية والذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة.

الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستبقون أن لا نصراً إلا نصر الله، وعندما شاء الله).

والذى يتبع تاريخ الدعوة الاسلامية على مدار الأزمنة والدهور يجد أن سنة الله لم تختلف أبداً، وهى باقية الى قيام الساعة.

قال تعالى :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ (١)

---

(١) البقرة الآية رقم ٢١٤ .

وقد تتعدد ألوان الابتلاء على الدعاة وتختلف ولا تأخذ صورة واحدة، والداعية اليقظ هو ذلك الذى ينظر إلى المحيط الذى يعمل فيه، وينتبه إلى لون الابتلاء الذى سيصيبه، فقد يكون المال الكثير، الذى يعيش له على حساب دعوته، وقد يكون الركون الى الظالمين دون دعوتهم دعوة خالصة لوجه الله، وقد يكون مدحاً مفرطاً وثناءاً عظيماً من الجمهور، وقد يكون عجبا بنفسه، وتعاليا على أقرانه لما أوتى من قدرات تفوق غيره .. الخ..

فليتذكر الدعاة أنهم على خطر عظيم لله لن ينقذهم منه إلا حسن الصلة بربهم، والتودد اليه. والتوكل عليه والاعتصام به ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ أ.هـ

وبعد ..

فهذه بعض القواعد الدعوية أردت أن أذكر بها اخوانى الدعاة، هادفا من وراء ذلك معالجة بعض الأخطاء التى يقع فيها بعضنا، ومصححاً بعض المفاهيم المخطئة، وإن هناك قواعد أخرى، غير التى ذكرت، لكن نظرت إلى أكثرها لمسا للواقع، وأقربها وشيجة له. فأسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا اليه وأن يحقق فينا الاخلاص، وأن يسدد كلمتنا ويجمع شملنا على كلمة سواء.

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

الباحث